14

تحدي القوى العظمى

العالم من البيت الأبيض: مهمة الولايات المتحدة

بدا أنه لا تزال المواجهة الملحمية بين العالم الحر والعالم الشيوعي"عام 1965 هو القصة المهيمنة على العالم، فلا يمكن التقليل من شأن مدى صعوبة عملية وضع سياسة عالمية حتى وإن كانت تتعلق بأمور الإدارة البسيطة حيث كانت النظرة السطحية العالمية هي السبب في إهمال مميزات الظروف المحلية أو التي أدت إلى سوء تفسيرها. فقد كانت فيتنام بعيدة – من الساحل الشرقي بالنسبة للولايات المتحدة- عن كل ذلك على المستويين الجغرافي والثقافي واعتقد الأمريكيون أنه يصعب على أي دولة أن تختار طوعاً أن تكون دولة شيوعية، ورغم ذلك فإن نظم الحكم في الدولة المهددة بسبب المذهب الشيوعي لا ضرورة لها في مشاركة القيم الأمريكية. وعليه كان من الممكن أن تؤدي عملية حماية الحربة من المذهب الشيوعي بالولايات المتحدة الأمريكية إلى منحدرات مختلفة كلياً عن تلك القيم وأظهرت الولايات المتحدة ثقة كبيرة في نفسها ولكن ربما كانت هذه الثقة محدودة؛ أما عن الاتحاد السوفيتي فكان لديه من الثقة ما جعله يتقين من حقيقة أن التاريخ يتحرك في اتجاه يمكن تمييزه لذلك كان من الضروري قمع المذهب التحريفي على المستوى الداخلي حيث جعل أي عناصر في النظام الحالي محلاً للتساؤل. وبحلول عام 1975 كانت

النتيجة واضحة وبسيطة ألا وهي: خسارة الولايات المتحدة في جنوب شرق آسيا وانتصار الاتحاد السوفيتي في شرق أوروبا وقد حدث ذلك على الرغم من سهولة التعامل مع العولمة الأمريكية وقبولها محلياً – وذلك قبل عقدٍ- عملاً على احتواء المذهب الشيوعي. وفي مارس عام 1965، وصلت القوات البحرية الأمريكية إلى مدينة "دا نانغ" الواقعة على الساحل الجنوبي من فيتنام وبعد وصولها بعدة شهور قليلة انتشرت القوات على وتيرة منظمة في معسكراتها وذلك على الرغم من تصريح الرئيس الأمريكي حينذاك في حملة إعادة انتخابه أنه لن ينوي إرسال الشباب الأمريكيين مسافة 15000 ميل بعيداً عن وطنهم ليقوموا بما يتوجب على الشباب الآسيوي القيام به بأنفسهم إلا أنه تزايدت أعداد الجنود بعد ذلك بثبات، وفي مطلع عام 1969 وصل عدد القوات الأمريكية في فيتنام لما يزيد على مليون جندي غير أن جميع الأمور اختلفت في إبريل من عام 1975 حيث أقلعت آخر طائرة مروحية أمريكية من أعلى سطح مبنى السفارة الأمريكية في مدينة سايغون الفيتنامية. فلقد غيّرت شبه الجزيرة الهندية الصينية العالم كله من ناحية إجبارها للولايات المتحدة على معرفة مفاهيمها العالمية المغلوطة وحدود قوتها وكيفية تعاملها مع ذلك، ورجع ذلك إلى من يتولون زمام الأمور.

فلقد أتى الرؤساء الأمريكيون إلى جانب مستشاريهم حتماً بمشكلاتهم ومعتقداتهم وأفكارهم الثابتة من الماضي للتعامل مع الوضع الحالي، وذلك متمثلاً في: من أين أتوا؟ وكيف خاضوا تجاربهم في العالم؟ لذا فذلك الأمر يهم، وجاء جونسون (مواليد عام 1908) ونيكسون (مواليد 1913) وأيضاً فورد (مواليد 1913) من نفس الجيل وانبثقت رؤية مرشح الرئاسة في الولايات المتحدة عن دور أمريكا في العالم على الأقل فيما يتعلق بالأمور العامة خلال الحملات الانتخابية التي لم يُحدد فيها على الأرجح نتيجة هذا الدور، وبمجرد انتخاب الرئيس يُصبح مستقلاً طوال فترة رئاسته على الرغم من مراعاته دائماً للرأي العام وبالنسبة للموارد فكان عليه مراعاة الكونغرس. وعلى غير العادة، فقد بات اثنان من نائبي الرئيس خلال عِقد أو أكثر – أحدهما في أول العِقد والآخر في آخره- تحت بؤرة الأضواء في البيت الأبيض على نحوٍ غير متوقع، فلم يكن الناخبون قد علموا بآرائهما

فيما يتعلق بالأحداث العالمية؛ علاوةً على ذلك فقد أدخل بالتأكيد حدث اغتيال الرئيس عام 1963 عنصراً غير متوقعاً في عملية رسم السياسات، حيث كان لدى كينيدي الكثير ليمثل جيلاً جديداً في الرئاسة وجاء من بعده "ليندون بينيس جونسون" والذي كان تقريباً لعِقدٍ من رجال الصفوة لدى كينيدي؛ فضلاً عن ذلك لم يكن ليندون بينيس جونسون الرجل العالمي - كما حاول أن يكون كينيدي- بل وإنه أيضاً كان كثير السفر خلال فترة شبابه.

أتى جونسون من أسرة مزارعة متواضعة ولكنها نشطة على الصعيد السياسي في تكساس، وبينما تخرّج كينيدي من جامعة هارفارد نجد أن جونسون تخرّج من كلية المعلمين الحكومية بجنوب غرب ولاية تكساس وبعد قضائه لفترة يعمل بتدريس فن إلقاء الخطابة دخل إلى عالم السياسة وبشكل مبدئي بصفته عضواً بمجلس الكونغرس في واشنطن، وخدم في القوات الأمريكية خلال الحرب العالمية في جنوب غرب المحيط الهادي وذلك في يونيو 1942 وزار سريعاً المنطقة الجبلية الأسترالية واعتقد أنها تُشبه كثيراً تلك الموجودة في ولاية تكساس كما كان لتأصله في تكساس أثراً في عثوره على التعبير الرمزي (على الرغم من كونه تصادفياً) عند قبوله منصباً على أراضي تكساس، ولم يُظهر جونسون اهتماماً كبيراً بزملائه ذوي الأصول الأوروبية، وبعيداً عن زيارته القصيرة لأوروبا عام 1945 لم يأتي إلى تلك القارة حتى أصبح نائباً للرئيس، فبتوليه هذا المنصب أخذ يجول في العالم بمعدل كل ثلاثة أشهرٍ حيث أن جميع مناصبه السابقة حتى هذا الوقت كانت داخل الولايات المتحدة كما أنه لم يأخذ العلاقات الدولية بتلقائية وبصورة طبيعية فبالنسبة له لم يكن هذا الأمر كالذي يُفكّر فيه ببداهة أثناء قيامه بالحلاقة كما كان يفعل وزير الخارجية آنذاك هنري كسينجر مثلاً. ولقد وضع جونسون أولويات بسيطة فيما يتعلق بالشؤون الخارجية فلم يكن ينوي أن يكون الرئيس الذي يشهد ضياع جنوب شرق آسيا بالطريقة التي ضاعت بها الصين، ففي مارس 1966 تفاءل جونسون آملاً أن يتذكر الفيتناميون الأمريكيون بالمدارس وليس بالسجائر، حيث صرّح قائلاً "سنعمل على تحويل نهر الميكونغ إلى وادي تينيسي"، مُشيراً إلى المشروع الأمريكي الشهير باسم "الصفقة

الجديدة" في فترة ثلاثينيات القرن العشرين. وبذلك تحول الأثر الأمريكي في فيتنام فعلياً ليُصبح مختلفاً بعض الشيء. وجد الرئيس الفرنسي ديغول في جونسون رجلاً مترفعاً عن ذاته فهو عبارة عن تجربة غير عادية؛ وعند حضوره جنازة كينيدي، أدرك الفرنسي كما يُعتقد وبصورة شخصية أن كينيدي كان قناع أمريكا أما الرجل الجديد فهو كان الوجه الحقيقي لها، ما زالت أمريكا تسمو على العالم؛ ومن جانبه، فقد وجد جونسون أن الأجانب يتحدثون لغات غريبة فلا يمكنهم المرح خلال المكالمات الهاتفية كما يمكن لبني بلدته.

في عام 1968، لم يسع جونسون لإعادة انتخابه وطارد كابوس فيتنام خليفته فى الحزب الجمهوري، نيكسون، بدءاً من عام 1968 ومرة أخرى من عام 1972 وذلك رغم تحولّه ولكن ليس لمدة كاملة. ولقد أطلق والد نيكسون على جميع أبنائه أسماءً لملوك إنجليز وربما السبب في ذلك هو حبه الشديد لإنجلترا. بعد أن تخرج نيكسون من كلية الحقوق بكاليفورنيا انضم لجمعية الأصدقاء الدينية (الكويكر) حيث لعب دور البوكر، خدم نيكسون في البحرية الأمريكية خلال الحرب كما أنه توّغل في منطقة المحيط الهادي على الرغم من كونه غير مقاتل، ونمت حياته السياسية خلال سعيه الصارم وراء العدو الشيوعي في الداخل والخارج؛ وبصفته نائباً للرئيس أيزنهاور فقد شاركه تماماً في جميع آرائه الإدارية المتعلقة بالعالم كما تطلب الأمر منه السفر، وبالرجوع إلى عام 1959 في موسكو، فقد وقع على عاتقه المشاركة في المزاح النقدي الشائك مع السوفيتي خروتشوف، وقد واجه خلال العام السابق لذلك قدراً كبيراً من الزيارات العدائية من قبل بعض دول أمريكا اللاتينية، فضلاً عن قيامه بزيارة ليبيا وأكسفورد، حينما تغلّب عليه كينيدي عام 1960، فقد بدا وأن حياته المهنية قد انتهت بيد أنه في عام 1968 عاد النهوض من جديد، وعلى ما يبدو فقد تغيرت نظرته تجاه العالم في هذه الفترة الفاصلة، وجاء بصفته أول رئيس جمهوري بصورة صحيحة لما يزيد على ثلاثة عقود، أحد المثقفين الليبراليين المريبين الذين اعتقوا أنهم فهموا العالم.

في يناير عام 1969، عيّن نيكسون هنري كسينجر- الخبير الأكاديمي في السياسة الخارجية بجامعة هارفارد والبالغ من العمر 45 عاماً- بصفته مساعداً خاصاً له في شؤون الأمن الوطني. وفي سبتمبر 1973، أصبح كسينجر أول وزيراً للخارجية الأمريكية أجنبي المنشأ حيث إنه الرجل المعني بتهدئة – أو كما أعلن- التحليل الهيكلي للعالم، وكما افترض أن التاريخ لم يعرف مكاناً للراحة ولا الركود وكذلك كسينجر؛ فقد آل تحليله للعالم إلى السعي وراء الروابط التي ستحقق استقراراً مربحاً وإلى جانب ذلك فقد اعتقد أنه على الولايات المتحدة أن تفخر بمساهمتها العالمية بعد عام 1945 بيد أنه شعر أن الرأي العام المحلي القائم عليه هذه المساهمة كان ينهار: حيث ارتفع مستوى عدم الثقة بالوطن وحتى أيضاً زادت كراهية الذات فقد اعتقد أن لديه شعوراً خاصاً بما تعنيه أمريكا، شيء ما قد مُنح للمواطنين المولودين فيها ليتميزوا به، وعلى الرغم من عدم مثالية الولايات المتحدة الأمريكية إلا أنها جسدت آمال البشرية، فكانت الحاجة بشكل ما إلى صياغة سياسة أجنبية جديدة من أجل عصرٍ جديدٍ كما أدرك كسينجر ذلك، وكان من الممكن تحقيق ذلك فقط من خلال التساؤل حول افتراضات ما بعد 1945 بشأن العالم ومكانة أمريكا فيه. ومن المحتمل أن تؤسس الدبلوماسية السرية التي تتعارض مع المفاهيم الخاصة بالاتفاقيات المفتوحة والمدركة صراحةً توازناً دولياً جديداً.

في أغسطس عام 1974، استقال نيكسون تحت تهديد الاتهام بتورطه في فضيحة السرقة بينما بقي كسينجر في منصبه، وخلف نيكسون في مقعد الرئاسة نائبه جيرالد فورد، وهو رجلٌ من عائلة لها تاريخ في كرة القدم؛ وفي ظل بيئة مشحونة كان من الجيد لتُعرف بأنك شخص أمريكي عادي، فقد كان لدى جيرالد فورد معرفة قليلة بالعالم الخارجي ومثله مثل أسلافه آنفي الذكر، خدم في القوات البحرية خلال الحرب في منطقة المحيط الهادي بيد أن ذلك لم يدفعه كثيراً للفضول بشأن الشؤون الخارجية. فقد تحدث فورد حول لم شمل الدولة مرة أخرى فاستعان بهذا المبدأ في خطوته التالية للعفو عن نيكسون. وعلى الرغم من ذلك فقد تبدد الحلم الأمريكي بقسوة، فدارت خُطُبات فورد عام 1975 حول حاجة أمريكا إلى استردادها حس الفخر الوطني الذي كان لديها قبل حرب فيتنام فقد

كانت الأحداث المُفجعة هناك تُنذر إما بنهاية العالم وإما بنهاية دور أمريكا القيادي في العالم، وذلك على حد قوله.

الولايات المتحدة الأمريكية وشبه الجزيرة الهندية الصينية: التشابك ونهاية اللعبة

بعد سقوط مدينة سايغون عام 1975 في يد الشيوعيين أُطلق على المدينة بعد ذلك اسم "هو تشي منه" وكانت على وشك محي ماضيها الاستعماري والفاسد على نحوٍ كبير؛ فقد توفى هو تشي منه نفسه عام 1969 قبل أن يرى اليوم الذي تحققت فيه أهدافه بتأسيس حزب شيوعي فيتنامي منذ عام 1930 وذلك بعد نضال دام ثلاثون عاماً. ولقد أظهرت المدينة مراراً وتكراراً تماسكاً وإرادةً لتحمل خسائر متباينة في ميدان المعركة؛ والآن فقد أصبحت فيتنام دولة واحدة تحت قيادة حزبها الشيوعي، حيث أُخرج منها الأجانب جميعهم من فرنسيين ويابانيين وأمريكيين بنجاح من خلال مساعدة أجانب آخرين لهم مثل الروسيين والصينيين. وحينما استطاعوا ذلك فقد هرب خصومهم الفيتناميين المهزومين من البلد وبذلك شكّلوا مجتمعات مغتربة صاخبة في جميع أرجاء العالم، وكانت الولايات المتحدة الأمريكية هي أكبر دولة مستقبلة في العالم لهذه المجتمعات، ولقد تخلص القانون الأمريكي للهجرة والجنسية لعام 1965 من نظام الحصص الموجود ووضع أول قيود للهجرة الآتية من نصف الكرة الأرضية الغربي، وبدايةً من مطلع سبعينات القرن العشرين، عني هذا التغيير أن شكّل أصحاب البشرة غير البيضاء الغالبية العظمى من المهاجرين إلى الولايات المتحدة الأمريكية مع إعطاء الأفضلية للاجئين المعارضين للشيوعية إما كانوا من الكوبيين وإما من فيتنام ولاوس وكان ذلك بعد عام 1975، ولقد اشتكى المغتربون غاضبين بأن الولايات المتحدة الأمريكية قد خذلتهم.

أصبحت الحرب محلية وعالمية في أن واحد فحرفياً كانت شجاراً في ميدان المعركة ومجازياً شجاراً من خلال وسائل الإعلام العالمية، ونتيجة لذلك فقد تضاربت الآراء ووجهات النظر – كما كان الحال في جميع الأرجاء- بشأن ما كان يدور حوله الأمر برمته، هل كانت فيتنام "كوريا أخرى"؟ ومنعت الولايات المتحدة وحلفاؤها الشيوعيين من

الاستيلاء على كوريا وحافظت على الجنوب متبعةً الأسلوب العسكري، فكانت هذه الحرب وحشية من عدة نواحي حيث بقيت شبه الجزيرة مقسمة وبدا ذلك ملائماً لمثيلتها بعد مرور عقدين على ذلك. فقد اتسم الأمر بالرمزية الجوهرية المحددة فيما يتعلق بمدى جاهزية حكومة سيول لإرسال جنودها إلى جنوب فيتنام، فضلاً عن المساعدات المتواضعة التي أتت من تايلاند والفليبين ونيوزلندا وأستراليا فأعلام هذه الدول كان مُرحب بها في واشنطن وكانت الولايات المتحدة هى الجهة الداعمة الرئيسية. وقد أكّدت مشاركة التحالف الآسيوي على الرؤية بأن مستقبل جنوب شرق آسيا على المحك.

وفي بداية عام 1968 خلال هجوم "التيت" الكبير اجتاح رجال "الفييت كونغ" والجنود النظاميين المتسللين من شمال فيتنام معظم العواصم الإقليمية في جنوب مدينة سايغون وبعض المباني الحكومية فيها، ولكن لاحقاً انعكست هذه المكاسب إلا أنه لم يكن هناك شيء آمن حقاً حيث أقنع التراجع العسكري – حتى وإن كان مؤقتاً- الرأي الخارجي بصورة كبيرة بأنه لا يمكن الانتصار في الحرب، فكان من الحمق بل وكان مكروهاً حتى محاولة الخوض فيها. وأعلن المتظاهرون في أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية أن إنتصار هانوي سيكون بمثابة انتصار الشعب بيد أنه أنكر معارضيهم هذا الأمر، ومع ذلك استغرق الأمر بعض الوقت حتى مارست جنوب فيتنام نوعاً من الديموقراطية رأى الأمريكيون أنها كما يجب أن تكون عليه الديموقراطية وذلك بقيادة الجندي نغوين فان ثيو والطيّار نغوين كاو كى على التوالي. ولقد كان الوقت هو ما يمكن للأمريكيين توفيره.

بحلول عام 1969، العام الذي توفى فيه هو تشي منه، لم يكن الانتصار المطلق قد تحقق بعد وذلك بعد الكثير من المشاحنات وعقد مؤتمر السلام رباعي الجوانب في باريس في بداية هذا العام حيث لم تؤدِ مباحثات السلام خلال وجود جونسون في الرئاسة إلى أي مكان وشارك في هذا المؤتمر الولايات المتحدة الأمريكية وجنوب فيتنام وشمال فيتنام بالإضافة إلى جبهة التحرير الوطني (متمردون نشطاء في الجنوب)، ورغم ذلك فقد أحرز تقدماً ضئيلاً. لم يكن الرئيس نيكسون من أرسل الجنود الأمريكيين إلى فيتنام ولكن وقع

على عاتقه العثور على طريقة لتخليصهم من هناك إلى جانب تعزيز الجزء الجنوبي غير الشيوعي؛ وفي يوليو خلال رحلته الخارجية الرئيسية الثانية أصدر نيكسون مرسوماً جديداً في جزيرة "غوام" في طريقه إلى الفيليبين وكان فحوى المرسوم أنه لا يجب على الدول الآسيوية الاعتماد على الولايات المتحدة من خلال سحبها إلى صراعات تشبه تلك الحادثة في فيتنام، وستبقى التزامات المعاهدة الحالية ولكن يتعين على الأمم الآسيوية نفسها زيادة مسؤوليتها للدفاع عن نفسها، فالمعدات والتوسعات وتدريب الجيش الفيتنامي الجنوبي ستمكنّه من احتواء المتمردين داخل أراضيه والتصدي للغزو الرسمي القادم من الشمال. وفي المقابل تم تقليل أعداد الجنود الأمريكيين بصورة منتظمة، فقد كانت القاعدة متوقعة حيث أملت الولايات المتحدة تراجع المعارضة المحلية الصاخبة بشدة حالياً من خلال الإشارة إلى نمط الانسحاب، وفي ذات الوقت ورغم ذلك سيكون هذا الانسحاب بكرامة، وسيعتمد الجنوب بنجاح على موارده الخاصة وبدون مساعدة أحد؛ وأظهر هذا المرسوم أيضاً أن الولايات المتحدة الأمريكية لم تكن على أرض الواقع بسبب سحبها إلى هذه الصراعات لمدة طويلة. ولقد انتظرت الحكومة الفيتنامية الشمالية لوقتٍ طويل ويمكنها الانتظار لوقتٍ أطول.

حققت سياسة "الفتنمة" بعض النجاحات إلا أن هذه الإستراتيجية كانت مقبولة على الصعيد الظاهري فقط، حيث نُفذت بسرعة بيد أنها لم تكن متناسقة على الرغم من سرعة تنفيذها، فقد أخفق التشديد العسكري في إدراك المدى الذي له يُعد كسب "العقول والقلوب" أمراً حاسماً. فضلاً عن ذلك بدا مبهراً عدد جنود الجيش الفيتنامي الجنوبي الذي بلغ مليون جندي بيد أنه انتشر بعددٍ قليل في أرجاء البلد، حيث تراجع الترابط المفترض وجوده بين القادة الفيتناميين بوضوح ويرجع السبب في ذلك إلى قلة الثقة فيما بينهم، كما وجد الأمريكيون والفيتناميون التنسيق بينهم صعباً للغاية، فاكتشف الأمريكيون روابطاً أسريةً ونُظُم المحسوبية لدى الفيتناميين صعب عليهم فهمها، ولم يكن ذلك مجرد موقف واحد أظهر فيه الغرب عدم فهمه للشرق فقد وجد الأمريكيون أنفسهم مرتبكين عند التعامل مع الفيتناميين الأوروبيين الذين استمروا في التحدث باللغة

الفرنسية. وفي ربيع عام 1972، غارت القوات الشمالية والفييت كونغ مرة أخرى على الجنوب بيد أن هذا الهجوم أيضاً لم يعط نتيجة حاسمة مرة أخرى. وكان رد الأمريكيون على ذلك هو قصف الشمال بما فيها هانوي وهايفونغ كطريقة لمساعدة مدينة سايغون بالإضافة إلى بث الألغام في موانئ ومرافئ الدولة، وتم الاعتقاد لبعض الوقت بصورة خاطئة أن هذا الأمر بات نهائياً.

وبعيداً عن مؤتمر السلام المذكور سابقاً، فقد دارت محادثات بين كسينجر ولي دوك ثو استمرت لعدة شهور بصورة غير منتظمة، وفي أكتوبر قبل الانتخابات الأمريكية تفاوض كلاهما للتوصل إلى نتيجة، وعليه تم الاتفاق بين الولايات المتحدة الأمريكية وشمال فيتنام على وقف إطلاق النار، وعليه كان من المقرر انسحاب القوات الأمريكية بالكامل مع إعادة السجناء الأمريكيين إلى وطنهم؛ وبالفعل فقد أُحجب ما قد يحدث في الجنوب بعد ذلك وبرفع هذا الغطاء رأى الرئيس ثيو أنه لا مستقبل له إلا أنه من خلال السلطة التي مُنحت له بالتزكية فقد حصد 94 بالمائة من نسبة الأصوات المدلى بها في انتخابات عام 1971 مما جعل اعتراضاته عامة. ولم يستطع الأمريكيون ترك حليفهم بشكل واضح، فقد ردّ نيكسون – المنتخب مرة أخرى-من خلال محاولة ضغط جديدة على شمال فيتنام حيث أمر بشن عدة هجمات جوية كثيفة على هانوي-هايفونغ مشبهاً ذلك بهدية عيد الكريسماس، وكانت هذه الهجمات مدمرة للغاية إلا أن خسائر سلاح الطيران الأمريكي كانت مرتفعة فقد بدا الأمر وكأن مجلس الكونغرس الجديد سيقتطع أموالاً من أجل القصف. في يناير عام 1973، ألغى نيسكون عملية القصف واتفق على وقف إطلاق النار على أساس مختلف بعض الشيء عن هذا المتفق عليه في أكتوبر على الرغم من إنه يمكن الادعاء بأن هذا الهجوم الجوي قد أجبر هانوي على استئناف المناقشات وبذلك انتهت المشاركة الأمريكية في القتال المباشر في فيتنام.

ولكن الحرب الفيتنامية نفسها لم تنتهِ، حيث تم مخالفة وقف إطلاق النار في عدة نواحي أكثر من مراعاته؛ وعُينت لجنة المراقبة الدولية لرصد الوضع وبدا الأمر مؤثراً ولكنه كان بلا جدوى، وافترض ثيو وحكومته أن الولايات المتحدة ستستمر في تقديم

مساعدتها لدعم جيشه الضخم، حيث استردت قواته بعض الأراضي بشكل مبدئي كانت واقعة تحت سيطرة الشيوعيين في وقت وقف إطلاق النار بيد أنه بحلول عام 1974 ارتطمت تلك القوات بحالات هروب من الخدمة العسكرية وقلة المؤن على نحوٍ سيء كما انتشر الفساد والمحسوبية بينها؛ فضلاً عن ذلك رمت مدينة سايغون إلى الاعتقاد بأنه من الممكن نشر قوة الطيران الأمريكي في حال انتهاك اتفاقات السلام انتهاكاً خطيراً؛ وأخطأت هذه الأوهام في تفسير وضع الرئيس المحاصر على نحوٍ متزايد في واشنطن، فكان حال الشمال الآن في وضع الاستعداد للدفعة الأخيرة. في بداية عام 1975، وبعد عدة تقدمات أحرزها الشيوعيون قرر ثيو سحب قواته إلى خطوط يمكنه الدفاع فيها بشكل أكبر وذلك حسبما زعم، ولكن بمجرد أن بدأ الانسحاب فإنه لم ينتهِ، فقد أُسقطت مدينتا هوي ودا نانغ في أواخر شهر مارس واستسلم ما تبقى من الحكومة الفيتنامية الجنوبية بلا أي شروط بحلول نهاية شهر إبريل إلى جانب ذلك رحل ثيو إلى منفى دائم لائماً الولايات المتحدة على ما حدث.

وبدا مستقبل الشيوعيين في أي مكان على شبه الجزيرة الهندية الصينية آمناً وسالماً فقد أطاح رئيس الوزراء اللواء لون نول بالأمير سيهانوك في مارس عام 1970 حيث حاول الأخير جاهداً إبقاء كمبوديا "محايدة" لعدة عقود، ولكن أراد نول التصدي لمتمردي شمال فيتنام وقد أعلن الرئيس نيكسون على شاشة التليفزيون أن الجنود الأمريكيين والفيتناميين الجنوبيين سيقومون بهذا الأمر له. فبدأ الاجتياح تلو الآخر وكأن الأمر تتطلب ذلك، وكان بإمكان نيكسون تفسير الأمر بأنه ليس بغزو وهي وجهة النظر التي عارضها النشطاء من الطلاب في الولايات المتحدة وقد حاول مجلس الكونغرس عام 1970 أن يخصص تمويلاً لعمليات القصف ولكنه لم يحقق نجاحاً كاملاً في ذلك، وكانت مسألة الإدارة فى توسيع منطقة الصراع بمثابة خطوة نحو السلام النهائي؛ غير ذلك من الناحية العسكرية، حققت عملية القصف بعض النجاحات على الرغم من تسببها في حدوث تفكك كبير في كمبوديا نفسها بسبب فرار السكان من القصف، فقد تزايد عدد سكان العاصمة لما يقارب الثلاثة أضعاف خلال خمس سنوات، وعلاوةً على ذلك فقد توسع

حزب الخمير الحمر الشيوعي بثبات كما أنه سيطر على العاصمة بنوم بن في إبريل 1975 بدعم من الحزب الفيتنامي الشمالي، ويمكن القول بأن تدخل الولايات المتحدة قد ساعد على تحقيق ما أعربت عن أسفها بشأنه وكان هناك أيضاً "الاجتياح المقابل" من الفيتناميين الجنوبيين لدولة لاوس بدعم أمريكي إلا أن الفيتناميون من الشمال ظلوا مُحصنين بقوة هناك. وبدءاً من عام 1973، وبالتكرار الكثير لمقولة "يجب سحب جميع القوات الأجنبية" أُجريت عدة محاولات لتشكيل حكومة ائتلافية في لاوس، بيد أنها سقطت في عام 1975 وهو نفس العام الذي شُكّلت فيه، ثم تولت حركة "باتيت لاو" الشيوعية السلطة بحلول نهاية العام وحولّت الدولة من الملكية إلى جمهورية شعبية، فقد كانت بالفعل عميلاً من فيتنام التي أصبحت في عام 1975 عبارة عن بلدٍ منكوبةٍ ومليئة بالرعب ومشوهة فمن المحتمل أن وزن القنابل بالطن الذي أُلقي على شمال فيتنام قد تجاوز ثلاثة أضعاف إجمالي ما قصفت به الولايات المتحدة جميع الجبهات خلال الحرب العالمية الثانية، وإن عملية توحيد فيتنام حقيقةً تُعد مهمة يتعهد بها المنتصرون من ذوي قلة الكياسة، ومن عانى كان من الفيتناميين من حيث الوفيات والإصابات، حيث بحلول عام 1973 كان قد قُتل حوالي 200000 جندي من جنوب فيتنام ومن المحتمل أن يكون خمسة أضعاف هذا العدد من قُتل من جنود شمال فيتنام ومقاتلي الفييت كونغ، فضلاً عن ذلك فربما قد وصلت الإصابات على مستوى العسكريين المليون وعلى مستوى المدنيين وصلت إلى رقمٍ مماثلٍ كما قُتل ما يزيد على 57000 من القوات الأمريكية ويوجد تقريباً ثلاثة أضعاف هذا العدد من المصابين، وكانت الأعداد في كوريا الجنوبية وأستراليا ونيوزلندا أقل بكثير.

بدأ المؤرخون عملهم سريعاً وكانت الملاحظة التاريخية العالمية الوحيدة بسيطة بأنه قد انتهت مشاركة القرن الفرنسية اليابانية الأمريكية– الناجحة– المباشرة في "شبة الجزيرة الهندية الصينية"، فقد تطلب استقلال أهلها تمسكهم بهدفهم إلى جانب عدم اكتراثهم بثمن ذلك، وتطلب أيضاً النجاح في تحقيق ذلك الدعم من كلٍ من موسكو وبكين ومساعدتها وكان لذلك الاعتماد ثمنه، ففي عام 1973 وقعت هانوي تحت قيد مناورات دبلوماسية ثلاثية متزامنة بين واشنطن وموسكو وبكين ولم تستطع هانوي التحكم في

نتائجها وما لم يمكن التكهن به – كان ذلك خلال عام 1975- هو أين ستتطابق الدول الثلاث وخاصةً فيتنام. ولقد تناقش الرؤساء الأمريكيين التاليين بشأن إذا سقطت فيتنام فإنه ستسقط جنوب شرق آسيا بأكملها. وهو ما يُسمى بالتداعيات المتعاقبة (تأثير الدومينو) وكان ذلك هو سبب مشاركتهم والآن وعلى الرغم من الجهود الأمريكية في حال سقطت فيتنام، هل سيتبعها الآخرين؟ وإذا كان الأمر كذلك فإنه يبدو على الولايات المتحدة أنها غير مرحبة أو غير قادرة على التدخل مرة أخرى -أياً كانت الدولة؟ فلم تكن الحرب كما كانت عليه فكانت القوة العسكرية لديها قيودها الواضحة ولم تكن الأسلحة النووية مستخدمة، حيث قد وصلت الولايات المتحدة إلى حد العولمة الأمريكية والسلطة الرئاسية، لذا كان قد حان الوقت لإعادة الأولاد إلى الوطن.

العالم من الكرملين: البعثة السوفيتية

لم يملك الاتحاد السوفيتي ما يُشبه فيتنام إلا أن مشكلاتها أثرّت عليه بشكل وثيق وواجهت سيطرة تكتله الأيدولوجية تحدياً مرة أخرى حيث أحرزت الأعداد المعارضة في موسكو للرؤساء الأمريكيين – إذا أمكن وصفهم- تقدماً للوصول إلى رفعتها الحالية والتي بدأت من أسر الفلاحين/ العمال كما أنه لم يُشارك "الاستفتاء الشعبي" في ذلك، وأسماهم العالم الخارجي "بالروسيين" بيد أن الصورة كانت أكثر تعقيداً مما تبدوا عليه؛ أما عن القيادة السوفيتية فقد فهمت وعبّرت عن العديد من المسارات المختلفة الموجودة في الدولة التي تحكمها، كما قامت بالمواجهة في عدة اتجاهات بينما تجابه العالم.

وبدءاً من عام 1964 تولى ألكسندر كوسيغين رئاسة مجلس الوزراء السوفيتي، وُلد كوسيغين وقضى بدايات حياته المهنية في لينينغراد (سانت بطرسبورغ حالياً) كما أنه ظل باقياً بعد حدوث مكائد ستالين على نحوٍ محفوف بالمخاطر نوعاً ما؛ وبعد الإطاحة بخروتشوف أصبح هدفه العام هو إصلاح "العالم الشيوعي" فانعقد مؤتمرٌ للأحزاب الشيوعية على مستوى العالم في موسكو في مايو عام 1965 إلا أنه رفضت الأحزاب الصينية حضور المؤتمر فزار كوسيغين الصين مرتين كما أُشير إلى دوره بصفته "وسيطاً" بين الهند وباكستان عام 1966 فكان يطوق بوضوح إلى أن يكون الوجه الخارجي للدولة

السوفيتية حيث احتلت أهميتها في آسيا الصدارة على الرغم من عدم تحسُّن علاقات الدولة السوفيتية مع الصين حيث هاجمت أحد الحشود الشعبية السفارة السوفيتية في بكين عام 1967؛ علاوةً على ذلك لم تقبل بكين الادعاءات السوفيتية في العالم كما اتضح في تصرف موسكو في أوروبا الشرقية عام 1968 (سيتم التطرق إلى ذلك باختصار) وفي العام التالي اصطدمت الدولتان ببعضهما عند نهر أوسوري واستئنافا هذا الصدام لرفع مستويات قوتهما، بعد ذلك أُجريت عدة مفاوضات عالية المستوى لم يصلا فيها إلى اتفاق. ولقد آل هذا المستوى من التدهور إلى جعل مباحثات المذهب الشيوعي في العالم فارغة بصورة متزايدة وأفسح ذك المجال لإحتمالية تأسيس عوالم جديدة غير ذلك نبهّت هذه الأزمة إلى أن القيادة في موسكو واجهت ناحيتين: في أوروبا وفي آسيا (وبالطبع أيضاً نبهت إلى تلك المواجهة مع الولايات المتحدة).

لم تُشيد أهمية كوسيغين به تماماً لدى أندريه جروميكو وزير الخارجية السوفيتي منذ عام 1957 (ويبدو أنه شغل هذا المنصب بصورة دائمة). لقد كانت معرفة جروميكو المباشرة بالعالم مختلفة، ففي السابق شغل منصب سفيراً في واشنطن ونيويورك ولندن. وُلد جروميكو فيما تُعرف حالياً باسم روسيا البيضاء وحصل على تعليمه الأولي بالقرب من العاصمة مينسك ثم انتقل إلى قلب الدولة السوفيتية؛ إلى جانب ذلك، قدّم جروميكو للعالم وجهاً آخر للدولة السوفيتية حيث في أغلب الأحيان كان ينطق مجيباً "بلا"، ومثله انتقل ليونيد بريجنيف أيضاً الذي أصبح السكرتير العام للحزب الشيوعي السوفيتي عام 1966 من محيط الدائرة إلى مركزها إلا أن بريجنيف تميز بعلاقة عمل جيدة مع ألكسندر كوسيغين كما أنه تحوّل إلى "النزعة الروسية"، فبينما يُصبح أكبر عمراً وأكثر شهرةً قدّم نفسه بصفته روسي الجنسية عوضاً عن كونه أوكرانياً على الرغم من أن مولده كان في أوكرانيا؛ وإلى جانب ذلك فقد حصل على تدريباً فنياً حيث خدم خلال الحرب بصفته مفوضاً سياسياً ذي رتبة عالية في الجيش الأحمر. كما أنه حصل على الكثير من الأوسمة بسبب حماسه، وبعد ذلك جاءت مشاركات الحزب في جمهوريتي المولدوفية والكازاخية حيث صعد بسرعة بمساندة خروتشوف وهو الرجل الذي كان له دوره في عزله، وفي

نهاية الأمر كان صوت بريجنيف هو ما يهم؛ إلى جانب ذلك لم يستقبل بريجنيف بعض شخصيات النخبة الأجنبية الأساسية فسافر لهم فلقد كان يحب أن تسير به السيارات الأجنبية الممنوحة له من الشخصيات الأجنبية الممتنة له. وباقترابه من عمر السبعين، لم يكن هناك ما يثير حماسته بالتعلق بالأشياء الأجنبية الأخرى، علاوةً على ذلك كانت أعمال الولايات المتحدة غامضة بالنسبة له كما كانت أعمال الاتحاد السوفيتي غامضة بالنسبة لجونستون.

ومن هذا المنعطف وعلى الرغم من كل ذلك أصبح تبادل الزيارات بين القادة الأمريكيين والسوفيتيين أمراً روتينياً، ولربما أبقى كوسيغين على ذاكرته الدائمة الخاصة بجلاسبورو وهي بلدة صغيرة بسيطة في ولاية نيوجيرسي وفيها قد قابل جونستون عام 1967، أما نيكسون فقد ذهب إلى في موسكو لمدة أحد عشر يوماً في مايو عام 1972، فقد كان هناك عدة مسائل خطيرة تتعلق بمحاولة حل نتيجة محادثات الحد من الأسلحة الإستراتيجية (SALT) التي بدأت في عام 1969 ويمكن إيجاز الاتفاق المنبثق في مايو عن تلك المحادثات – دون شك وبصورة حاسمة – بقول أنه اتفق كلا الطرفان على إنشاء موقعين خاصين بهما حيثما يضعان قذائف دفاعية مضادة للقذائف التسيارية وكان من المزمع أن يتحقق رصد الساتل مما كان يجري هناك، كما أنهما اتفاقا على إجمالي الأسلحة الهجومية؛ علاوةً على ذلك فقد كان من المفترض أن يتوازن التفوق العددي للاتحاد السوفيتي مع التفوق الفني للولايات المتحدة الأمريكية لذا تم التوصل إلى بعض الاتفاقات من خلال البيانات العامة حيث يجب ألا تُعاق العلاقات الدبلوماسية العادية بسبب الاختلافات في الأيدلوجية أو النظام الاجتماعي كما يمكن تقوية الروابط والاتصالات في العديد من المجالات؛ فضلاً عن ذلك فقد زار بريجنيف الولايات المتحدة في يونيو عام 1973 كما ذهب نيكسون إلى الاتحاد السوفيتي في يونيو العام الذي يليه 1974. وكما حدث، كان هذا الأمر هو آخر تبادلاً للزيارات فيما بينهما. فقد حقق كلا الجانبان "دماراً متبادلاً مؤكداً" على الرغم من وجود جدل بشأن بعض نقاط التفوق أو نقاط العجز في حدود إطار ذلك العمل وغير ذلك لم يلتزم أي من الجانبين بإيقاف المشروعات

المحتمل أنها ستقلل من التوازن التقريبي الذي تم تحقيقه كما يبدو، على الرغم من تنازل كلاً من فرنسا والصين وتوقيعهما معاهدة الحظر الشامل عام 1969، فإن الشعور بوجود دولتين كبرتين يحركان العالم كان من الممكن أن يسموا على أي توتر بينهما حتى وإن لم يتلاشى هذا التوتر.

ومن الواضح أنه لم يكن رجال الصفوة عالمي الأفق وطليقي العنان في كلا البلدين فقد كانوا يتشبعون بالانطباعات الأجنبية من خلال حماسهم الأكاديمي ولم يكن هذا ما تطلبه أدوارهم إلى جانب ذلك فقد جسدت الدولتان التي يحكمونها أوجه نظر أيدولوجية، وبذلك بقي مذهبا "العالم الحر" و"الشيوعية" مُطلقين كما يبدو وخائضين في صراعهما المستمر. ولبرهة أصبح جروميكو مناهضاً للدين بقوة بيد أن الولايات المتحدة لم تكن مناهضة للدين رغم فصلها الدين عن الدولة. عاجلاً أم آجلاً كان على باقي العالم بالتالي أن يقرر أي عرض عالمي كان جاذباً له بصورة أكبر.

الاتحاد السوفيتي والدول الاشتراكية: هل هو تضامن دون سيادية؟

أوضحت صحيفة برافدا، الجريدة الرسمية للحزب الشيوعي السوفيتي، في 24 سبتمبر 1968 – كما سيتضح- بشكل رسمي أن العلاقة بين سيادة الدول الاشتراكية والتزاماتها الدولية مثل: تشيكوسلوفاكيا والمجر وبلغاريا وبولندا من ضمن دول أخرى يجب أن تنصاع للأوامر وأنه يمكن للدول السوفيتية غير الاشتراكية تحديد مسار تنميتهم شريطة عدم إلحاقها الضرر بحركة العاملين الاشتراكيين على المستوى الداخلي أو العالمي فينظر الاتحاد السوفييتي في سلوكياتهم ويضع لهم القواعد. وقد كان الإصرار على السيطرة على العالم هو ما رفضته بكين بقوة وغضب وكان مرسوم السيادة المحدودة يُعد مفاجأة بالكاد رغم حداثة أنه "مرسوماً" أعطى علامة قوية لوجود حركة للطبقة العاملة منتشرة على المستوى العالم وأكد على وجودها وأن الاتحاد السوفيتي ليس بدولة عادية فهو كان بمثابة الحارس الكوني لهذه الحركة.

ولقد تسبب التعقيد الموجود داخل تشيكوسلوفاكيا في أزمة الاتحاد السوفيتي وأنتج الوضع الرسمي للسيادة المحدودة وفي يونيو عام 1966 خلال مؤتمر الحزب

التشيكوسلوفاكي رفض ألكسندر دوبتشيك أمين الحزب الشيوعي السلوفاكي باعتبار ذلك "أثرٌ من الماضي" الادعاء بأن القومية كانت النقيض لمذهب الدولية حيث كان قد حُظر الاحتفال "باليوم الوطني" في الدولة منذ عام 1948 باعتبارها دولة برجوازية ولكنه أُعيد الاحتفال به في أكتوبر. وفي مدينة براغ كان هناك بعض النشاط الذي كان هادئاً ولكن غير واضحاً كما كانت تشيكوسلوفاكيا هي الأقل في مشكلاتها من بين السواتل السوفيتية وغير ذلك فقد كانت ممثلة للاتحاد السوفيتي نفسه في العديد من الأمور الخارجية المختلفة ورغم ذلك بقي ادعاء دوبتشيك مبهماً حول أي أمة كان يُشير إليها هل هناك جنسية تشيكوسلوفاكية أم هناك جنسيتين: تشيكية وسلوفاكية مرتبطتين بصعوبة في التصور السلوفاكي؟

ولقد عرف ليونيد بريجنيف مدينة براغ وأتى أولاً إلى عاصمة المحمية الألمانية المسماة "بوهيميا وموارفيا" في ذلك الوقت عام 1945 بصفته مفوضاً سياسياً مع الأقسام الأوكرانية بالجيش الأحمر"القوات الألمانية المستسلمة". ورغم ذلك عاد بريجنيف إلى المدينة سراً في ديسمبر عام 1967 بصفة مختلفة تماماً ولم يرغب في زيادة السخط على الوضع الحالي كما بحث أنتونين نوفوتني عن بريجنيف كي يدعمه حينما وقع في مشكلة سياسية فقد كان نوفوتني – بالطبع تشيكي الجنسية يبلغ نفس عمر بريجنيف- أميناً للحزب الشيوعي التشيكوسلوفاكي ثم تولى رئاسة الدولة لمدة عشر سنوات وفي بادئ الأمر لم يستوعب أمر توليه الرئاسة مباشرةً حيث قضى نوفوتني معظم الحرب داخل معسكر الاعتقال الألماني في ماوتهاوزن؛ ولقد تولى نوفوتني السلطة عام 1953 عند وفاة كليمنت جوتوالد أثناء حضوره جنازة ستالين ورغم وفاة ستالين إلا أن مذهبه لم يفنى فقد بقي في "المذهب الشخصي" لنوفوتني إلا أن هذا المذهب تدهور بسبب ضعف شخصيته. وفي أوائل ستينات القرن العشرين شهد اقتصاد الدولة مشكلةُ كبيرة وزادت الانتقادات بسبب قسوة النظام وكان الهدف هو لعب نوفوتني دوراً مزدوجاً على مستوى الحزب والمستوى القومي، وقام "الإصلاحيون" بدفع ألكسندر دوبتشيك إلى الساحة على الأقل في براغ وهو رجل سلوفاكي وغير معروف نسبياً وفي يناير عام 1968 انتخبته اللجنة المركزية

التشيكوسلوفية بالإجماع بصفته السكرتير الأول للحزب بدلاً من نوفوتني (الذي ظل رئيساً للدولة).

بعد ذلك كان قليلون من أعربوا عن تقديرهم للعوالم التي اجتمعت في شخص دوتشيك واستقبلت شيكاغو في نهاية القرن التاسع عشر العديد من المهاجرين التشيكيين والسلوفاكيين وكان من بينهم عائلة ألكسندر، ولكن لاحقاً عاد والديه إلى الدولة الجديدة المسماة تشيكوسلوفاكيا حيث وُلد ألكسندر عام 1921 وبعد سنوات قليلة انطلق والده بعائلته إلى قرغيزستان السوفيتية وهو يحركه حماسه تجاه المذهب الشيوعي ورغم ذلك فقد عادوا جميعاً إلى سلوفاكيا عام 1938، وبذلك وجد ألكسندر نفسه سريعاً يعيش في الدولة الجديدة "سلوفاكيا" خاضعة لألمانيا ويترأسها كاهن كاثوليكي يُدعى جوزيف تيسو. لاحقاً التحق ألكسندر بالموالين للأحزاب السلوفاكية خلال الحرب وأُصيب وبعد الحرب التحق بقسم الدراسات السياسية في أحد الكليات الحزبية بالاتحاد السوفيتي ثم تطورت حياته المهنية داخل جهاز الحزب في سلوفاكيا حتى وصل إلى رئاسته عام 1963 وحالياً هو في مدينة براغ.

كان هناك سبباً ضعيفاً لافتراض تعجيل تشيكوسلوفاكيا بإثارة أزمة في جميع أرجاء الاتحاد السوفيتي حيث كان يُشار إلى "التضامن السلوفاكي" أحياناً بالنظر إلى ما حدث عام 1938 فبدا أن التشيكيون قد أخرجوا أفضل ما في الوضع (كما حدث أيضاً عام 1948) ولم يكن الأمر بالنسبة لهم مثل الاندفاعات الألمانية أو البولندية أو التعنتر المجري؛ وبعيداً عن هذا النمط القومي، حيث أثبتت الشيوعية التشيكوسلوفاكية قوتها الأصيلة في الفترة بين 1945 و1948، حيث رُحب عموماً برفاق بريجنيف عام 1945. على الرغم من انسجام التشيكيين (السلوفاكيين) على نحو أكبر ومثير للريبة مع التحرريين الجريئين أو المخطط الديمقراطي في الغرب إلا أنه لم تصرّ موسكو بعد عام 1945 على الوضع الدائم للجيش الأحمر (على عكس بولندا أو المجر)، وغير ذلك فقد احتفظ بعض التشيكيون بتأثيرهم في الدور التاريخي بمدينة براغ وذلك على الصعيدين التجاري والثقافي بصفتها جسراً في قلب أوروبا. هل يمكن لهذا الدور بين الشرق والغرب أن يتجدد؟ فعلى سبيل

المثال، بدءًا من أواخر خمسينات القرن العشرين فصاعدا أثّر العالم اللاهوتي البروتستانتي التشيكي جيه. إل. هرومادكا والذي قضى فترة الحرب في الولايات المتحدة في مؤتمرات السلام المسيحية المنعقدة في براغ حيث فيها اجتمع فيها الشرق والغرب. فهل كان على المسيحيين الهروب من سجن التكتلات غير أنه هل كان من الممكن حقاً توفير طريقاً وسطاً؟

التفت هذه التصورات حول ما كانت عليه تشيكوسلوفاكيا أو من المحتمل أن تكون عليه وذلك في ربيع عام 1968، وأوصى بعض خبراء الاقتصاد المحليين بإضفاء بعض اللامركزية على الإدارة الاقتصادية كما ظهرت حرية ملموسة في الصحافة واستقال نوفوتني من الرئاسة وجاء بدلاً عنه لواءً مسناً كان اسمه الأخير يعني "الحرية" عند ترجمته ورغم كبر سنه إلا أنه قد أعاد تعيينه في الرئاسة الطمأنينة إلى موسكو بسبب قيادته للقوات التشيكية في الجيش الأحمر خلال وقت الحرب إلا أنه على الأرجح لم يكن الأمر مرضياً بالوعود الانتخابية والإصلاحات الأخرى، وغير ذلك حارب الإصلاحيون والمتشددون من أجل الفوز بالسلطة المطلقة في براغ وخلال فصل الصيف شعرت القيادة السوفيتية بالقلق والتذبذب خوفاً مما قد ينبثق من مؤتمر الحزب الخاص المقترح، وأُجريت تدريبات حلف وارسو إلا أنه كان لا يزال هناك أمل بإمكانية احتواء ما اعتُبر كعدوى المرض، غير ذلك فقد اقتنع دوبتشيك بوسيلة أو بأخرى بالسيطرة على التغيير حيث إنه في حال أقدم على ذلك كان من المقرر إبقائه في منصبه كما عُقد العديد من الاجتماعات. وفي براتيسلافا بتاريخ 3 أغسطس وبحضور القادة التشيكوسلوفاكيين اتفق القادة السلوفاكيين وقادة منطقة شرق أوروبا بوضوح على أنه يمكن لمدينة براغ مواصلة إجراء إصلاحاتها الداخلية في حال تأكيدها على عزمها البقاء في حلف وارسو ورغم ذلك في ليلة 20-21 أغسطس غزت قوات حلف وارسو في نهاية الأمر دون أي مقاومة من الجيش التشيكوسلوفاكي، ففي بادئ الأمر تعاملت موسكو مع دوبتشيك المتنمر فيما يتعلق بالتخطيط لعودة براغ إلى حالتها الطبيعية بيد أنه دُفع به إلى الخارج خلال شهور قليلة وفي إبريل 1969 أصبح غوستاف هوساك- رفيق سلوفاكي- الأمين العام للحزب الشيوعي التشيكوسلوفاكي

وكان يتسم بأنه سلس القياد ورغم ذلك وجد نفسه مسجوناً من كلٍ من نظام تيسو وزملائه من الشيوعيين بصفته مخالفاً للمألوف "شاذاً" بيد أنه الآن ابتعد عن العناصر الإصلاحية. بعد مرور عام على ذلك ورغم كل ما حدث يبدو وكأن "ربيع براغ" لم يحدث مطلقاً ودوت المسألة التشيكية- السلوفاكية داخل تشيكوسلوفاكيا إلا أن النظام الحاكم هناك في براغ لم يثير أي تهديد بالنسبة لأوروبا السوفيتية وللتأكد من ذلك بقيت وحدات الجيش الأحمر في الدولة وقبل الاتحاد السوفيتي مساهمة تشيكية مقابل التكاليف التي تكبدها مع امتنانه لذلك.

وتوالت التطورات الحادثة في تشيكوسلوفاكيا عن كثب في العالم الغربي إلا أن الحكومات لم تُبد أي استعداد للتدخل كما أوضحت استنكاراتهم غالباً عدم اكتراثهم بذلك ولم تتوقع منهم أي من العواصم الأوروبية إحداث أي فرق؛ ففي براغ حد ذاتها ثار الطلاب بسبب الدبابات السوفيتية بيد أنها كانت سُدى. وفي الخارج فُسر انعدام المقاومة المسلحة التشيكية للغزو على إنه إما تخاذل مذموم وإما حس سليم متعقّل وسيطرت موسكو على تكتلها وفي أوائل أغسطس سافر كلٌ من تيتو وشاوشيسكو إلى براغ للتعبير عن دعمهما لدوبتشيك وكانت هذه الخطوة جعلت هذا الدعم ضرورياً بعيداً عن الحول دون العمل العسكري السوفيتي وبرغم ذلك فهناك عدة أسباب للتوقف لبرهة قبل بدء الغزو وذلك في تصور موسكو، وكان ذلك سيثير غضب الغرب حتى وإن كان فقط على وتيرة واحدة وبصورة مؤقتة في وقت شعوره بالقلق إزاء الصين التي اقترحت تحسين العلاقات مع الولايات المتحدة ولم يندفع بريجنيف في هذا الأمر، فيجوز أنه اتخذ إجراءً بالفعل في نهاية الأمر خوفاً من أن يدعوه المتشددون بالضعيف ومن ثم إقالته من منصبه. ورغم ذلك فقد كان الأمر مؤكداً فعلياً مسبقاً بأنه لن تُجرى معارضة هذا الغزو إلا أن أثره السلبي على الانطباع الخارجي عن الاتحاد السوفيتي كان سيئاً بصورة مثيرة للجدل بل أيضاً بصورة أكبر بالنسبة للمذهب الشيوعي ذاته في المستقبل. يجوز أن دوبتشيك كان ساذجاً إلا أنه كان صادقاً فعلياً فلم يستطع التصديق بأن الاتحاد السوفيتي الذي كرّس حياته كلها له كما ذكر يمكن أن يقوم بمثل تلك الأفعال، ولم ير نفسه بصفته معادياً للثورة

أو أداة في يد المنتقمون المفترضون من ألمانية الاتحادية، فقد حلم بالاشتراكية من منظور إنساني وبنوعٍ جديدٍ من الديموقراطية الاشتراكية ولكن الحقيقة الصادمة هي أنه ليس هناك طريق ثالث لذلك، فكان إشعال الطالب جان بالاش النار في نفسه في ميدان وينسيسلاس إشارةً على انقطاع الأمل.

وكان هذا قراءة أحادية للوضع، فقد أوضحت قراءة أخرى أن النظام السوفيتي كان متصلباً وعلى وشك الانحلال إذا بقي مطولاً عكس الانطباع بالاستقرار المترسخ الذي يعطيه؛ غير ذلك لم يبدو أن هناك احتمال بوجود نتيجة مؤكدة في هذه المرحلة. إن مشاركة قوات دول حلف وارسو أظهرت تضامن التكتل إلا أنه لم يكن الأمر كذلك وبالطبع خشيت جميع القيادات – ولكن بدرجات مختلفة- الخاصة بالدول المشاركة من تفشي "المرض التشيكوسلوفاكي" على الرغم من محاولة المجر بالقيام بشيء من الوساطة، ففي هذا الشأن لم تكن تلك الدول مجبرة على المشاركة في هذا الغزو، حيث حذر فالتر أولبريشت – على وجه الخصوص- رئيس جمهورية ألمانيا الديموقراطية (GDR) من محاولة الجمهورية الاتحادية (FRG) لتأسيس ما أطلق عليه التبعيات الاقتصادية في أوروبا الشرقية.

وللأسباب السابقة تركّز الاهتمام على تشيكوسلوفاكيا غير أن قادة الأحزاب في الدول الأخرى قد تابعوا "إصلاحاتهم" بحذر وتيقظ، وفي عام 1968 أجرى نظام كادار المجري بنفسه بعض الإصلاحات التي لا فائدة منها في "الاقتصاد الموجه" كما أجريت محادثات بشأن آلية اقتصادية جديدة بلغة تشبه تلك المنبثقة من براغ إلى جانب ذلك كان هناك إشارات أخرى للتحرير فمشاركة المجر في غزو تشيكوسلوفاكيا يمكن اعتبارها متعمدة إذا كانت النتيجة تناقضية حيث لا تزال المجر التي كانت تتسم بالولاء تتبع مساراً مختلفاً كما أنها شهدت بعض الانفتاحات ففي عام 1965 استقبلت المجر ما يزيد على مليون زائر أجنبي ربعهم من وراء الستار الحديدي واستمرت هذه الأعداد في الزيادة؛ ومثلهم سافر عدد من المجريين إلى الخارج إلا أن خمسون بالمائة منهم فقط سافروا إلى الغرب وبحذر أسس كادار الماكر ما كانت توصف أحياناً بالشيوعية اللينة على الرغم من

الاحتفاظ بصرامتها دائماً كما حاول الميل ميلاً طفيفاً على المستوى الخارجي فقد رُحب بأورهو كيكونين "ابن العم" الفنلندي للمجريين– البعيد نوعاً ما– في بودابست عام 1969 حيث أتى برسالة تفيد بأنه يمكن للدول المحايدة ذات الأنظمة الاجتماعية المختلفة فسح المجال للتعايش السلمي على المستوى الدولي. وكان الوضع الداخلي المجري قيد التغيير من عام إلى آخر ولم يكن هناك أي شيء سوى رغبة كادار في الرحيل أو استطاعته للرحيل حيث كان سعيداً بقوله – حسبما سمع منه بريجنيف– بأنه لا يمكن لأي أحد أن يدعو نفسه بالشيوعي ولديه آراء معادية للاتحاد السوفيتي. وفي العيد السنوي الثلاثين لتحرير الوطن عام 1975 تم اقتناص الفرصة للتأكيد على "الصداقة الأخوية الراسخة" بين المجر والاتحاد السوفيتي.

اختلفت بلغاريا للغاية عن المجر فقد قدم تودور جيفكوف أمين الحزب البلغاري منذ عام 1954 الدعم للاتحاد السوفيتي على نحوٍ منتظم مستخدماً لهجة الفلاحين الدقيقة ولم يكن الولاء لروسيا محطة إلزامية في بلغاريا كما كان الحال في المجر، وأرادت دولته – جيفكوف– أن يكون لها رفقة بعيدة حيث كانت محاطة بعدد من الدول الشيوعية "غير الموثوقة" متمثلة في يوغوسلافيا ورومانيا ودولتين غير شيوعيتين: اليونان وتركيا، وقد سعدت موسكو بتقديم هذه الرفقة كما أظهر جيفكوف ولائه لها وطور علاقة شخصية وثيقة مع بريجنيف إلا أنه في الماضي قد قلّص احتياجاته بقوة بما اقتضت به الظروف؛ ولقد أفسح مزاح بسيط بشأن حالات غموض السوق الاشتراكي المجال إلى التأكيد مرة أخرة وبقوة على المذهب الأرثوذكسي وذلك على أثر ربيع براغ. أكد الدستور الجديد وبرنامج الحزب عام 1971 على أن بلغاريا أصبحت دولة اشتراكية تمثلها الطبقة العاملة وغير ذلك فقد ألزم الحزب نفسه بإتباع نظام حيث تختفي جميع الفروق في الممتلكات والوظائف وتصبح الأمة بأكملها فعلياً طبقة عاملة فلا حاجة لقول أن إرسال فرقة ممثلة للقوات إلى تشيكوسلوفاكيا على وجه السرعة لم يُشكل مشكلة بالنسبة لأمين الحزب.

وأيضاً لم تكن بولندا مثل بلغاريا ولم يكن الأمر مصادفةً في وارسو حينما اختارها بريجنيف لإصدار مرسومه فكان الأمر بمثابة تذكرة لحالة بولندا المحدودة، وعلى مدار

الجزء الأول من العام خاضت الدولة أزمة سياسية جياشة حيث أُصيب الطريق البولندي إلى الاشتراكية بعدة صدوع، علاوةً على ذلك حدثت مناورة سياسية استثنائية تورط فيها بقوة وزير الداخلية اللواء موتشار. وكانت هناك حصيلة واحدة لهذه المرحلة الغريبة لما شهدته من اعتداءً على الخونة الصهيونيين وهي خروج معظم ما تبقى من الأقلية اليهودية في بولندا وكانت زوجة جومولكا يهودية ويجوز أن هذا كان أحد العوامل وراء هذا الهجوم الضار، واضطر جومولكا بث دعوة إلى الوحدة الوطنية وتحديد مثيري القلاقل ومع ذلك فقد عاش لمدة عامين إضافيين التحالف الجديد بين حزبي الديمقراطي الحر والديمقراطي الاجتماعي (SPD-FD) الذي تولى السلطة في مدينة بون خلال تلك الفترة بدء بحث المسألة الألمانية. وفي ديسمبر 1970، برغم ذلك أعلنت الحكومة عن ارتفاع كبير في الأسعار وهو ما اعتبره الشعب هدية عيد الكريسماس ودفع به إلى القيام بالتظاهرات والاحتجاجات في مدينة غدانسك وغيرها من المدن مما أدى إلى وقوع خسائر في الأرواح وعليه أُعلنت حالة الطوارئ وهذه المرة اضطر جومولكا إلى الرحيل حيث أثبت المذهب الشيوعي القومي المتربط به اختلافه ولكنه كان أقل اختلافاً عمّا أمله بعض المفكرين الماركسيين.

وجاء إدوارد جيريك بعد جومولكا بصفته أميناً أول للحزب حيث لا يزال رئيس الحزب في سيليزيا وهي المنطقة حيثما كان التاريخ الألماني كما يجب أن يكون، وحضوره في التاريخ الموافق للمعاهدة الموقعة مع الجمهورية الاتحادية (سيُشار إليها باختصار) منح بولندا ما لم تملكه منذ عام 1945 ما يُسمى بالأمن على حدودها الغربية مما عمل على تغيير شعور بولندا بالحاجة إلى المثابرة على الاتحاد السوفيتي باعتباره حاميها؛ ولقد نُفي الرجل الجديد من قبل في أوروبا الغربية – جزء من ذلك كانت بولندا وما بعد بولندا والتي كان دائماً لها أثراً في حياته الخاصة. نشأ إدوارد جيريك في فرنسا وبلجيكا حيثما أخذته والدته عندما كان طفلاً بعد وفاة والده في حادث ناجم عن التعدين، وكان نشطاً في الحزب الشيوعي البلجيكي حينما كان عاملاً في المنجم بالأساس كما أنه لم يعد إلى بولندا حتى عام 1948؛ إلى جانب ذلك كان الأمر يبدو غريباً بوجود أحد أبناء الغرب في وارسو في ذلك

الوقت رغم أن ذلك لم يشكّل أي عامل في رفعة شأنه، وفي عهده ومعه الرجال الجدد الذين أحضرهم شهدت سبعينيات القرن العشرين انتعاشاً اقتصادياً فقد وُجدت بولندا جديدة بوجهٍ آخر وللمرة الأولى في تاريخها عاش الكثير من الناس في المدن بدلاً من الريف، وما لم يتغير كان الحقيقة الأساسية من ناحية تحكم الحزب الشيوعي في الحياة السياسية بأكملها.

فضلاً عن ذلك، فقد أبقى الوضع في بولندا أيضاً على حاله في ظل التكتل، وشهد العِقْد – كما أُشير إليه- بعض التعديلات أو محاولة إجراء تعديلات في الأسلوب المتبع في ممارسة هذا التحكم إلا إنها كانت فقط هامشية حيث لم تكن هناك إمكانية النقاش بشأن الأساس المنطقي للدولة ولتحكم الحزب في الدولة، واتسع الوجود الشامل والمهيمن للاتحاد السوفيتي في كل مكان لذا لم يكن حمقاً الحديث عن "التكتل السوفيتي" وبدا حلف وارسو على المستوى العسكري مهيباً من الناحية النظرية حيث يعمل هذا الحلف فقط وإلى الآن في الظروف التي يُدعى للقيام بفعلٍ ما ويُقابل القادة بعضهم البعض بصورة منتظمة وأخوية حيث صنعت اللغة الروسية كلغة ثانية واصلاً مجتمعياً إلى حدٍ ما كما عُزز الدمج فيما بينه من خلال النمط الشامل للتجارة الداخلية للتكتل حتى وإن عجز مجلس التعاضد الاقتصادي (الكوميكون) عن الإيفاء بمتطلبات تصميمه الكبير إلى حدٍ ما. وعلاوةً على ذلك، تلاشت أواسط شرق أوروبا في مرحلة ما قبل الشيوعية من الذاكرة بمرور الوقت حيث إنها كانت تأسست عام 1939 واتسمت بالكاد بالمثالية في جميع النواحي، وبحلول ستينيات القرن العشرين لم تكن معياراً يجب أو يمكن الرجوع إليه، ويبدو أن كل ذلك التقسيم هوه الراسخ والأبدي داخل أوروبا ولذلك ففي الوقت الذي بدت فيه أوروبا كما لو أنها "أوروبا السوفيتية" عام 1975 كانت بالفعل قد أُنقذت كما أنهت اتفاقيات هلسنكي –سنتطرق إليها باختصار- على ما يبدو الوضع الراهن حيث عكست الدروس المستفادة بوضوح عن العِقْد الماضي.

ولقد خلص بعض المُعلّقون على الأنباء من الداخل ومن الخارج إلى الاستنتاج بأنه ليس هناك شيء على حافتها قد يُنهي "أوروبا السوفيتية" كما أنهم تناقشوا حول أنه من

الممكن حدوث النهاية فقط كنتيجة لحدوث انقلاب ما داخل الاتحاد السوفيتي ذاته وهو أمر يبدو بعيد الاحتمال، ومع هذا فهناك الكتّاب الذين كانوا يعملون على إظهار المسائل الشائكة لدى الجهات السوفيتية حيث تبنوا تكتيكاً بسيطاً وهو التظاهر لصالح الدستور السوفيتي؛ غير ذلك فقد جذبت مجموعة من الوثائق المجهولة المصدر الانتباه إلى إعلان الأمم المتحدة لحقوق الإنسان الذي وقّعه الاتحاد السوفيتي إضافةً إلى ذلك نظّم بافيل ليتفينوف، حفيد وزير الخارجية ستالين، احتجاجاً موجهاً إلى "الرأي العام العالمي" وقد وقعت بعض حالات الانشقاق بيد أن الشيوع الذي أثارته آل إلى طرقٍ أقل شعبية لتقييدهم، وقد كانت مؤشرات تلك الانشقاقات وغيرها من المؤشرات التي عبّر عنها الكتاب بشكل رئيسي ولكن ليس وحدهم لا قيمة لها بيد أن "الرأي العام العالمي" لم يقدم مساعدة بنحوٍ كبير حتى وإن كان من المفترض إدراكه، كما أنه لم يأخذ بعض المراقبون الغربيون الأمر بجدية حيث إنهم يجهلون الدور التاريخي الذي لعبه الكتّاب في سرد الانشقاقات، وفي الوقت الحالي على الأقل بدا الأمر كما لو أن الاتحاد السوفيتي يعزم على اتخاذ ما يلزم بصورة كافية حتى يتمكن من البقاء.

إضافةً إلى ذلك فإن المدى الذي اضطر فيه الاتحاد السوفيتي داخل حدوده التعامل بنفسه مع المشكلات القومية المحددة فقط في تكتله أصبح أكثر وضوحاً لذا فهل كان إضفاء الطابع الروسي صراحةً أو ضمن الهدف من السياسة؟ ليس أن يكون ما يعنيه "إضفاء الطابع الروسي" واضحاً، فإن التحدث بالروسية لا يعني بالضرورة تحويل المواطنين السوفيتيين إلى روسيين حيث كان لدى الجمهوريات الفردية وأمنائها الأوائل تصورهم الخاص فيما يتعلق بتلك الأمور غير أنه كان هناك بعض التوترات بدرجة أكبر أو أقل في كل مكان تحيط بمظهر المهاجرين الروسيين كما زعم أن الوافدون الروسيون إلى دول البلطيق وغيرها لم يتجشموا عناء تعلّم اللغة المحلية وأنه عانى أهل البلد من ضغطٍ كبيرٍ للتحدث باللغة الروسية ولم تختفي ذكرى الدولة المستقلة في إستونيا ولاتفيا وليتوانيا المنتزعة عام 1939 ولم تُسترجع مرة أخرى؛ وفي مكان آخر في جورجيا مسقط رأس ستالين على سبيل المثال قد أدى احتجاج في الشارع في العاصمة تبليسي إلى تقديم اقتراح

بإعطاء المواطنين الروسيين حقوقاً مساويةً للمواطنين الجورجيين الذين تم التخلي عنهم؛ وكانت تختلف معدلات المواليد باختلاف الجنسيات وعليه تغير التوازن العرقي الكلي للدولة السوفيتية، بعد ذلك ظهرت مشكلات دينية/ قومية معقدة بدرجة كبيرة وتؤثر على وضع المسلمين واليهود. بحلول عام 1975 استمرت وسائل الإعلام الغربي في استخدام لفظ "روسيا" لوصف الاتحاد السوفيتي رغم أنه ذلك الوصف لم يكن في محله بشكل كبير، ولذلك فقد كان من المحتمل أن "التكتل السوفيتي" بما فيه الاتحاد السوفيتي يواجه أزمة نظامية مع إنها ثارت ببطء. وانعكس دوي الجزء الأول من كتاب أرخبيل غولاغ للكاتب ألكسندر سولجنيتسين انعكاساً واسع الانتشار حيث نُشر الكتاب بالخارج عام 1973 حيث كانت روايته لها عواقب وآثار مختلفة فقد أدت إلى اعتقاله وترحيله من البلاد في العام التالي، وعزماً على الوفاق في هذه المرحلة مع موسكو لم يحرص الرئيس فورد وأيضاً وزير الخارجية كسينجر على مقابلة سولجنيتسين وإلى جانب ذلك، ففي أوروبا الغربية وضعت قصة حياته في المعتقلات الحزب الشيوعي الفرنسي في موقف صعب للغاية. ومن المحتمل أنه لم يتم التأكيد كثيراً على تصريحات سولجنيتسين داخل البيت الأبيض أو أنها أصبحت عالقة بين المعارك الداخلية للحزب اليساري الفرنسي إلا أن سولجنيتسين لم يكن في وطنه أثناء وجوده في أي من هاذين المكانين؛ كما أنه أرسل خطاباً إلى الاتحاد السوفيتي نُشر في الغرب يُلح فيه بقوة على إنعاش روسيا فكان من المرجح أن الأمر يحتاج لتكون مستبداً كما اعتقد هو. وستقدم الكنسية الأرثوذكسية الإنعاش الروحاني المطلوب، كما أنه مقت الحال الذي كان عليه الاتحاد السوفيتي والذي لا يزال عليه على نطاق واسع بيد أن الغرب أيضاً كان له نصيب من هذا المقت، فحتى وإن كانت فلسفة الاتحاد السوفيتي لم يُفترض أن تتبع المذهب المادي إلا أن أسلوب الحياة فيه في الواقع كان مادياً سطيحاً. وبمعنى آخر لا يجب استبدال الشرق القديم بالغرب الحديث: حيث من المحتمل الإشارة إلى الطريق الثالث الروسي على المدى الطويل.